بلادة أم اتزان ؟

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى

يجئ يوم فى حياة الإنسان يُرزق فيه البلادة المريحة ، وأعنى بالبلادة انتفاء الحدة والعنف فيما يساور النفس من شعور ، ويدور بها من خواطر . فَحَطَّةُ بوزهى كل ما يبديه من أسف على فائت ، وهزة كتف خفيفة لاتكاد تُلحظ هى ما يقابل به الحوادث الجسام ، والبرود أو الجمود هو ما يتلقى به الغمز واللمز والتشهير ، والابتسام هو كل ما يبدو من سروره

زارنى مرة صديق لا يزال على ارتفاع سنه فتىّ الروح يغلى فى عروقه دم الشباب ، ودفع إلىّ بصحيفة وقال وهو يشير بأصبعه إلى موضع فيها ، وكأنه يشكه برمح : « ألا ترد على هذا ؟ » فرفعت رأسى إليه — فإن قامته مديدة ، وأنا كما يعلم القراء ، أو كما لا يعلمون ، قمئ صغير — وسألته : « ماذا ؟ » قال وهو ينتفض كأن به حمى : « هذا الشتم ! هذه القباحة ! هذه السفالة ! هذه ... »

فاستوقفته بإشارة وقلت : « حلمك ! لقد شتمنى بعضهم مرة فى صحيفة كبيرة فقال عنى إنى (من فراش العار) وأضاف إلىّ زملائى جميعاً فقال عنا إننا (أبناء الزوانى) فهل قال هذا — وأشرت إلى الصحيفة التى ألقاها على مكتبى — شراً من ذاك ؟ »

فترك هذا وسألنى : « ألم تقتله ؟ »

قلت : « يا سيدى لو كنت أعلم أنه خالد لحاولت قتله ، ولكنه فانٍ مثلى ، فلماذا أجشم نفسى عناء باطلاً ، وأتكلف تحصيل الحاصل ، وأتعاطى العبث والسخافة ؟ »

قال باشمئزاز : « هذه فلسفة لا أفهمها ... هه ... من ضربك على خدك ... »

قلت : « لا ، ليست هذه فلسفة ، وإنما هى بلادة ، ثم إنى لا أدير للضارب خدى الآخر ، وكل ما فى الأمر أنى لا أحس ما ظنه الضارب لطمة لى على خدى ... »

فصاح بى : « كيف لا تحس ؟ أيقول عنك إنك من فراش العار ، وإنك ابن زانية وتجئ وتزعم أنك لا تحس ولا تبالى ؟ »

قلت : « حلمك مرة أخرى . إنى أعرف أنى لست من فراش العار ، وأنى لست ابن زانية ، فما يشتمنى به لا يغير ما أعرفه . ثم إنك تتوهم أن الناس يصدقون كل ما يذم به بعضهم بعضا . وهذا غير صحيح . ولو أن الذى شتمنى التزم القصد ، وآثر الاعتدال فيما رمينى به لكان أخلق بأن يصدقه الناس ويقتنعوا ، ولكنه أسرف واشتط فأفسد على نفسه مرامه ، فكلامه فىّ يتال منه ولا ينال منى . وقد أخجله ضنى بنفسى على هذه الأوحال فاعتذر ، فهل تدرى ماذا قلت له ؟ »

قال : « لا أريد أن أسمع . يظهر أنك تحاول أن تقلد غاندى ... المهاتما غاندى ! » قالها بلهجة المتهكم الزارى

قلت : « ولا هذا أيضاً . إن غاندى حى — مثلك — ولكن أساليبكما مختلفة . أما أنا فأهون ما أقوله فى نفسى أنى أصبحت لا أطيق بعثرة القوة وتبديد الجهود فى العبث الذى لا طائل تحته . أصبحت بخيلاً مقتراً ، أنفق حياتى بحساب دقيق ، وأدخر كل ما يسعنى ادخاره من القوة ؛ وما زلت مسرفاً فى إنفاق حياتى ، ولكن فيما أحب أنا ، وبإرادتى ، لا بالشعور الدافع . وإنه ليحلو لى أن أسمى هذا بلادة ، ولكنه قد يكون اتزاناً ، وصحةَ إدراك للقيمة الحقيقية للأشياء . ولا تخف . سترانى يوماً أنقض على خصم فأمزقه إرباً إرباً ، فما نفدت قوتى ، ولا فقدت القدرة على استطابة أكل اللحم البشرى ، وما زلت ذلك الوحش القديم الذى يلذه أن يمزق لحم الفريسة ، وأن يلغ فى دمها . وإذا رأيتنى أسطو على أحد ، وأكر عليه وأصميه ، أو أعذبه تعذيب القط للفأرة ، فاعلم أنى أفعل ذلك بإرادتى ، لأن شعورى غلبنى ، فما يغلبنى شعورى فى هذه الأيام . وعلى بما أقدر عليه هو الذي يصدنى عن هذه المهاترات الفارغة »

فقال : « لقد تغيرتَ جداً »

قلت : « إنك تذكرنى بقول القائل :

وقد زعمت أنى تغيّرت بعدها ومن ذا الذى ياعز لا يتغير ؟

نعم من ذا الذى لا يتغير؟ حتى الحجر ! ومع ذلك من يدرى؟

لقد كنت فى صدر حياتى مدرساً ، وكان بعض التلاميذ يحاولون أن يعابثونى، فكنت آخذ عليهم طريق العبث وأكتفى بذلك ، وأستغنى عن الاحتياج إلى عقابهم، وكنت أزعم أن هذه حكمة، والواقع أنى ما عاقبت تلميذاً قط، فى عشرسنين زاولت فيها التعليم، وكان الذى بينى وبين تلاميذى عاماً كل هذا الزمن، ولكنى كنت أديرعينى فى نفسى وأفحصها ، وأغوص فى أعماقها ، أتبين أنى أكره العقاب الخفيف ، وأنه لا يرضينى إلا أن تكون الضربة قاصمة للظهر ، لأنى بطبعى عنيف ، ولما كان لا محل لضربة قاضية من أجل أن تلميذاً لاعبنى أو مازحنى ، وهو لا يريد شراً ، وإنما تغريه بذلك طبيعة الصبى ، فقد كنت أكبح نفسى وأردها عن الأذى ، وأعمل بقول الشاعر :

توقى الداء خير من تصدٍ لأيسره وإن قرب الطبيب

نعم تغيرت ، بمعنى أن بعض الطباع التى كانت تظهر وتخفى فيما مضى ، صارت أبرز وأقوى، فهى الآن السمةُ الغالبة والطابع الملحوظ

هذه خلاصة ما حدثت به صديقى ، وقد قلت له كلاماً آخر كثيراً، نسيته ، فقد طال بيننا الحوار ، وتركنى وهو غير مقتنع بصوابى ، فلم أحفل بذلك . وماذا يضيرنى ألا يقتنع ؟ ولماذا أكلف نفسى تعب إقناعه ؟ أنا الذى جربت مراراً كيف يخيب الأمل ، ويذهب المسعى سدى ؟

وأويت إلى مكتبى فى الليل ، بعد أن نام البيت ، وأعفيت من ضجة الأطفال ، وأخرست لسان الراديو الصاخب ... وعلى ذكر الراديو أقول إن بنىّ مثلى ، يأكلون على ضوضاء الراديو ، ويراجعون دروسهم على صخب الراديو ، ولا يبدو عليهم أنهم يسمعون ما يصيح به ، أو يلوكه ، ومن شابه أباه فما ظلم ، وإنى لأرجو أن يظله أمثلى ، وألا يكترثوا من عسى أن يسبهم ويزعمهم « من فراش العار » — فى حوار أدبى أو جدل سياسى — ما علينا .

سألت نفسى لما خلوت بها : « أهذا الذى صرت إليه اتزان أم بلادة ؟ وصحة إدراك للقيمة الحقيقية للأشياء ، أم فتور حتى عن محاولة الادراك ؟ وهل النار كامنة تحت هذا الرماد ، أم هى خمدت وأنت تحسبها لا تحتاج إلى أكثر من التقليب ؟ وهل يشى هذا بالقوة ، أو يشى بالضعف ؟ ومن اليأس هذا ، أم من العلم والفهم الصحيح ؟ وحال تدوم ، أم عارض يزول ؟

وطال تفكيرى فى جواب هذه المسائل ، ولم أنته إلى شىء تسكن إليه النفس ، فنهضت وأنا أقول : « ولماذا أعنّى نفسى بهذه التعبات ؟ وماذا أبالى على كل حال سواء أكان الأمر هكذا أم كذلك ؟ »

وأعجبتنى « لا أبالى » هذه ، فقد صارت عندى مخرجاً من كل ورطة ، وباباً لتفريج كل أزمة فى النفس . ومن كان يسعه أن يقول — ويكون على نحو ما يقول — « لا أبالى » فقد أوتى الراحة ، ولا أقول السعادة فإنها خرافة .

ابراهيم عبد القادر المازنى